"التلويحات الحوارية المتولّدة عن توظيف أسلوب الحكيم في سياق خرق قاعدة الملاءمة كما تتجلى في نصوص مختارة من (نهج البلاغة)"

نور هاشم محمد صادق الغريفي

أ.د. مسلم مالك الأسدي

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية/ قسم لغة القرآن وآدابها

"Dialogical Implications Arising from Al-Hakeem Style's in the Context of Violating the Rule of Suitability as Manifested in Selected Texts from Nahj al-Balagha"

Noor Hashem Mohammed Sadiq Al-Gharifi

Prof. Dr. Muslim Malik Al-Asadi

University of Karbala / College of Islamic Sciences / Department of Qur'anic Language and Literature

https://doi.org/10.64704/dawat.2026124806

ملخص البحث

إن نظرية التلويح الحواري واحدة من النظريات الغربية ضمن إطار التداولية وهي تبحث في استعمال اللغة بأسلوب تداولي عميق و فلسفي متأصّل، فقد وضع النظرية العالم البريطاني (بول غرايس) عام (١٩٥٧) في محاضرات كان يلقيها على طلبته وهي تعني كيف يتسنى للمتكلم أن يعني أكثر مما يقول أي يكون المعنى أكثر من القول و خطّ للنظرية مبدأً عامًّا أسماه (مبدأ التعاون) على افتراض أن المتكلم و المتلقي يحصل بينهما تعاون في عملية الحوار و من ثم اتباع مبادئ متفرعة عن هذا المبدأ و هي (الكم، والكيف، والملاءمة، والأسلوب أو الطريقة)، و هذه المبادئ تحدد عملية التبادل الحواري بين طرفي الحوار، أمّا عندما يلجأ المتكلم إلى عملية انحراف عن واحدة من هذه المبادئ فينتج لنا دلالة خفية تتطلب الوقوف و التأمّل من المتلقي في الكشف عن سبب الانحراف أو الكسر الحاصل في المبدأ الذي عمد إلى استعماله المتكلم في سبيل لفت ذهن المتلقي إلى معلومات خفية يريدها المتكلم و يجب على المتلقي أن يستكشفها عبر القراءة و التدبّر مع السياقات و الظروف المصاحبة للنص، و قد ترجم هذه النظرية إلى العربية العالم العراقي الدكتور (هشام الخليفة) واصطلح عليها (نظرية التلويح الحواري) ضمن كتابه (نظرية التلويح الحواري بين اللسانيات الحديثة و التراث العربي و الإسلامي) وانتهج فيه منهجًا وترجمة مغايرة عمّا انتهجه المترجمون العرب في تسمية النظرية و خطّ لنفسه طريقاً مختلفاً عمّا سلكه الباحثون و المترجمون العرب و للاطلاع أكثر و بشكل وافٍ يرجى مراجعة الكتاب المشار إليه و القراءة بتدبّر للوقوف أكثر، و قد تلاءمت النظرية مع الفنون البلاغية العربية القديمة ضمن أساليبها الفنّية البلاغية التي تُستعمل في تعميق الدلالات و التلويح إلى دلالات مخفية و منها (أسلوب الحكيم) الذي يعدّ واحداً من الأساليب البلاغية التي تولد تلويحات حوارية يجب الوقوف عليها و كشف مضامينها الخفية و استنتاج ما يريده المتكلم، و لا سيما نص المولى أمير المؤمنين (عليه السلام)؛ إذ يعدّ من النصوص التي تحمل في طيّاتها الدلالات العميقة و العديدة ضمن إطارات تلويحية متعددة و من ضمنها (أسلوب الحكيم) تحت بند خرق مبدأ الملاءمة الذي نحن بصدد بحثه و استقصائه.

Abstract

The theory of conversational implication is one of the Western theories within the framework of pragmatics that explores the use of language in a deeply pragmatic and philosophical manner. The theory was developed by the British scholar Paul Grice in 1957 during lectures he delivered to his students. It focuses on how a speaker can convey more meaning than words, meaning being more than what is stated. The theory is based on a general principle called the «The cooperative Principle,» which assumes that the speaker and listener cooperate in the dialogue process. This principle is then followed by several maxims: quantity, quality, relevance, manner. These principles determine the dialogue exchange between the two parties. However, when a speaker deviates from one of these principles, it produces a hidden meaning that requires the listener to pause and reflect in order to uncover the reason for the deviation or breach of the principle. The speaker deliberately uses this deviation to draw the listener›s attention to implicit information, which the listener must discover through reading and contemplation With the contexts and circumstances surrounding the text, this theory was translated into Arabic by the Iraqi scholar Dr. Hisham Al-Khalifa, who termed it «The Theory of Dialogic Allusion» in his book «The Theory of Dialogic Allusion Between Modern Linguistics and the Arab and Islamic Heritage.» In this work, he adopted a different approach and translation method than that used by other Arab translators in naming the theory, charting a distinct course from that taken by Arab researchers and translators. For a more comprehensive understanding, please refer to the aforementioned book and read it carefully. The theory aligns with the classical Arabic rhetorical arts, employing artistic and rhetorical

techniques to deepen meanings and allude to hidden connotations. Among these is «Al-Hakeem Style,» which is considered one of the rhetorical styles that generates conversational implicatures. These implicatures must be examined to uncover their hidden meanings and deduce the speaker›s intent, particularly in the text of Imam Ali (peace be upon him), which is considered one of the texts that carries profound and numerous meanings within multiple frameworks. This includes the wise man's method under the heading of violating the principle of appropriateness, which we are about to -examine and investigate.

مدخل:

إن النظريات التداولية الحديثة لها أصول في ما احتوته من دراسات اللغة العربية القديمة و لم تنشأ من فراغ بل كانت جميع النظريات أو أكثرها فيها مسحة من الدراسات اللغوية العربية القديمة وموضوعنا البحثي في هذا المبحث هو كسر مبدأ الملاءمة الذي يعد واحداً من المبادئ الأساسية التي وضعها (غرايس) فالدراسات التداولية تعطي أهمية واسعة للأدوار التي يقوم بها المتخاطبون في العلاقات الاجتماعية اليومية الحياتية و إن هذه المخاطبات لا تأتي من فراغ بل مجموعة من المشتركات و المتعارفات التي اعتاد عليها المتحاورون، و بالتأكيد أن عملية الحوار و التواصل لا تنشأ إلا بقواعد حوارية تضمن سلامة التواصل و الحوار فلا يمكن لعملية التواصل و الحوار أن تُبنى من دون قواعد و أصول و لا يمكن العيش بطريقة عبثية و ساذجة، فالقواعد الحوارية هي التي تنظم عملية التواصل و من دونها لا يمكن التواصل بل يفقد التواصل فاعليته فضلاً عن أدبياته، و إن هذه المعيارية في التواصل تحفظ حق أطراف الحوار في كيفية التعبير ضمن أصول صحيحة منطقية بعيدة كل البعد عن وسائل القوة القهرية و السلطوية مما يجعل كل طرف في عملية اختيارية لمبادئ الألفاظ المختارة ضمن المعيارية المحترمة في سبيل تحقيق أسس العيش المسالم و التوصل إلى رضا المقابل في كل الأحوال، و هذا ما جعل علماء اللغة ينشطون في وضع قواعد و أصول في حوكمة الألفاظ و صيانة استعمالها من الفحش و الغرابة الذهنية التي لا تتناسب مع ثقافات الحوار المحترمة، فكانت القواعد التي وضعها العلماء الغربيون لها أصول في الدراسات اللغوية العربية القديمة و منها موضوع خرق (مبدأ الملاءمة) الذي وضعه (غرايس) و الذي يتماشى مع ما طُرح قديماً بل مأخوذ منه و هو (أسلوب الحكيم) الذي استعمله العرب في حواراتهم وظهر بشكل كبير في نصوص القرآن الكريم، فقد ورد في تعريف أسلوب الحكيم ((هو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه – إما بترك سؤاله: والإجابة عن سؤال لم يسأله. تنبيها على أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال–

وإما بحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد، تنبيها على أنه كان ينبغي له أن يقصد هذا المعنى، فمثال الأول، قوله تعالى: وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ [البقرة: ٢١٥] سألوا النبي عليه الصلاة والسّلام عن حقيقة ما ينفقون من مالهم، فأجيبوا ببيان طرق إنفاق المال: تنبيها على أن هذا هو الأولى والأجدر بالسؤال عنه. وقال تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ [البقرة : ١٨٩]. ومثال الثاني: ما فعل القبعثري بالحجّاج، إذ قال له الحجاج متوعدا (لأحملنك على الأدهم). يريد الحجاج : القيد الحديد الأسود: فقال القبعثري: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» يعني الفرس الأسود، والفرس الأبيض، فقال له الحجاج: أردت الحديد فقال القبعثري: لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا، ومراده تخطئة الحجاج بأن الأليق به الوعد لا الوعيد. وقال ابن حجاج البغدادي:

قُلْتُ ثَقَّلْتُ إذْ أَتَيْتُ مراراً
قالَ ثَقَّلْتَ كاهِلِي بالأَيادِي
قلتُ طَوَّلْت قال لا بل تَطَوَّ
لت وأَبرمتُ قالَ حَبْلَ ودادِي

فصاحب ابن حجاج، يقول له: قد ثقلت عليك بكثرة زياراتي، فيصرفه عن رأيه في أدب وظرف وينقل كلامه من معنى إلى معنى آخر))[1]، كما ورد أيضا في مفتاح العلوم للسكاكي ((هو أن يُلقى السائل بغير ما يتوقعه تنبيهاً له على ما هو أولى بحاله))[2]، أما كيفية إجرائه فيمكن أن نوضحها بشكل مختصر عبر آليات تداولية متقنة من وجود استفهام أو توقع لاستفهام و إن المتلقي يتوقع جواباً محدداً و إذا بالمتكلم يعدل إلى جواب آخر لا يتلاءم مع ما طرحه السائل في لفتة ذكية من المجيب للفت ذهنه إلى أمر ما أو تلويح يراد الانتباه إليه عن طريق الإخلال بواقعة الحوار النظامية، و مما يمكن أن نلاحظه أن طريقة تطبيقه تُكمن في تحويل بؤرة السؤال أو الحوار من قيمته الاستفهامية إلى محورية الفضول لكشف علة العدول و الانحراف بالتالي تقديم ما يمكن أن نسميه الكلام البائن إلى تلويح أهم و هو المراد، و يمكن أن يوضح من قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ

أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا}[٣] فعندما سأل أحد المسلمين رسول الله (ﷺ) عن موعد الساعة فالمتوقع من الإجابة التحديد، في حين ذهب الجواب إلى زجر ونهي للسائل عن هذه القضية التي لا تهمه في شيء فالجواب لم يكن متوقعاً في عدوله إلى جواب آخر((لم يجبهم عن وقتها، بل ردّهم إلى ما هو الأهم، و هو الاستعداد لها))[٤] فكان الجواب ذا بعدٍ تداوليٍّ تلويحيٍّ يُراد من السائل أن يذهب بعيداً عن الأجوبة المتوقعة إلى ما يكون أهم و أعمق، فالمراد واضح من فن (أسلوب الحكيم) إذ المفهوم العام الذي يعنيه يتماشى بشكل كبير و مفهوم خرق مبدأ الملاءمة الذي طرحه (غرايس) فيمكن الربط بين المفهوم القديم والحديث بالخروج إلى مفهوم عام في عملية جواب غير ما يتوقعه السائل و غير ما طرحه، فالسائل يطرح سؤالاً ويحتاج إلى جواب فيه ما يريد فيجيبه المسؤول إلى مفهوم آخر لا يتوقعه ربما ظاهراً لا يلائمه و في ذلك يريد المسؤول أن يلفت نظره إلى الجواب و التعمق في حيثياته ففيه ما هو أهم و أعمق و أكثر نفعاً و دلالةً، ويمكن أن نلاحظ هذا الفن بشكل لافت في القرآن الكريم و النصوص الدينية الذي فيه انتهاك لمبدأ العلاقة و نجده يتماشى بشكل كبير مع (أسلوب الحكيم) الذي يعني تلقي السامع جواباً على غير ما يتوقعه من المتكلم[٥]، (فأسلوب الحكيم) من الأساليب التي استعملها العرب القدامى بشكل كبير و يشبه خرق مبدأ الملاءمة الذي طرحه (غرايس) ضمن نظريته التواصلية في الأفق العام للنظرية التداولية في وقتنا المعاصر و الحديث.

و من كلام له (عليه السلام) إذ يقول: ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ والآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ – فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ – ولَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ – وأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ – مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ – فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ ولِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ – إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ – وقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ – للهِ آبَاؤُكُمْ فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ – ولَا تُخْلِفُوا كُلاًّ فَيَكُونَ فَرْضاً عَلَيْكُمْ))[٦].

آليات صنع الخطابات تتنوع بحسب الثقافات المختلفة التي يتمتع

بها المبدع فالخطاب الذي يُعقد بأسلوب ذي إمكانيات اعتيادية لا يمكن أن يقارن بالنص الإبداعي لفظاً و دلالةً و قد أشار غرايس إلى فلسفية النصوص بحسب إطارها الطبيعي فأحياناً نجد خطابات اعتيادية طبيعية مفتوحة الخصوصيات تعمل السياقات المرافقة على سد ثغراتها المصاحبة للنص و ملء الثغرات التي تكون ظاهرة للمتلقي، و في بعض الأحيان تكون الخطابات غير اعتيادية يلجأ المتلقي إلى عناصر الفلسفة التفسيرية و في ضوء المعطيات و السياقات يمكن أن يصل إلى الدلالات المطلوبة من تكوين النص[٧]، و هذه المضمونات قد أشار إليها (غرايس) و اعتنى بها غاية الاعتناء و أكد أنّ السياقات و الأطر المحيطة بالنص تؤدي إلى الوصول إلى التلويحات و أن هذه التلويحات لا تنشأ اعتباطاً بل لا بد من المرور بكل الظروف و السياقات المرافقة للنص حتى نصل إلى هذه التلويحات التي ترتبط بمبدأ التعاون العام للحوار القائم بين المتحاورين[٨]، و يمكن أن نلاحظ الخطاب التداولي للمولى أمير المؤمنين (عليه السلام) من أول كلمة تشع منه التلويحات و التلميحات و الإشارات إلى دلالات خفية لا يمكن الكشف عنها إلا من القراءة المتأنّية و استعمال المفاتيح السياقية و المعلومات في المرجعيات المتبادلة، ففي بداية النص نرى استعمال لفظة (أيها الناس) فالمتبادر إلى الذهن أنه خطاب عام يشمل الكل بما فيهم السامع غير المباشر و حتى غير المؤمنين، فالقاعدة الأولى الخطاب للجميع على حدٍّ سواء، ثم ينتقل الخطاب إلى عنصر الموعظة و الحكمة وهنا تكمن النكتة الرائعة ويمكن أن نبين عندما يُسأل المرء عن الدنيا تكون الإجابة بشكل مباشر وهذا يقع ضمن إطار مبدأ الملاءمة أي بما يلائم السؤال و لا يخرج عنه و النظر إلى التأويلات بشكل سليم و بنظر ثاقب حتى يمكن التفحص عن ماهيات التأويلات التي يريدها النص و هذا يُستنتج من معاني الملفوظات الظاهرة و ربطها بسياقاتها المصاحبة و النظر إلى المقامات المحتوية للنص المنتج حتى نصل إلى كيفية التفاعلات القوية و الصحيحة في النص[٩]، فالناظر للوهلة الأولى يرى المتكلم في استفتاح كلامه و انتقاله للجواب عن السؤال المفترض

في وصف الدنيا وحيثيات الموت؛ لكن الانتقالية في التعبير من حال المجيب المباشر إلى الموعظة و النصح و الإرشاد عنصر مباغتة للسائل و لفت نظره إلى ما هو أهم من سؤاله و هذا هو (أسلوب الحكيم) الرائع الذي استعمله المتكلم و كسر للرتابة و التسلسل في السؤال و الجواب و عنصر المفاجأة والانتقال جعل من المتلقي في عملية استدلال و بحث عن عناصر الصورة الأساسية القياسية التي أرادها المتكلم و انتقاله من الكلام المباشر للسؤال إلى العناصر غير المباشرة في سبيل استحداث دلالات خفية ضمنية يلوح لها من عملية الانتقال و الجواب غير الملائم ظاهراً[١٠]، فكان الجواب أسمى و أهم وأنبل من جواب السؤال المطروح لو أُريد الجواب عنه بصفة مباشرة و العدول أحدث هزّة نوعية في نفسية المتلقي في البحث عن التلويحات الناتجة عن هذه الانتقالة و سبب الانحراف عن سياق الكلام، وهذا هو عينه خرق (مبدأ الملاءمة) و الإجابة بغير ما يتوقعه السائل في سبيل لفت ذهنه إلى ما هو أهم و أنفع من سؤاله فانتقل الجواب عن عالم السؤال المادي إلى المحاورة العملية التطبيقية التي لها النفع الأعم و الأكثر من التنظير والوصف، و الناظر للنص يرى القصدية التداولية في تغيير مسار الدلالة الضمني وتحوله إلى سلوك عملي ((إن مبدأ الصلة أو المناسبة يزوّدنا بتفسير أبسط فبموجب نظرية الصّلة فإن التفسير أو التأويل الصحيح للمنبّه الإظهاري هو أول تفسير متاح يتوافق مع مبدأ الصّلة و هذا سيكون بالنسبة لأغلب القولات تفسيراً مبنياً على أساس الصفات أو المميزات الدلالية فالمميزات الأخرى للقولة عموماً لا تكون على قدر كافٍ من الصلة لتُنتج تفسيراً متوافقاً مع مبدأ الصلة، أما في الحالات الشاذة فإن المميزات الدلالية للقولة لا تُنتج تفسيراً ملائماً في حين إن المميّزات الأخرى تفعل ذلك، و هكذا يفسّر مبدأ الصلة كلتا الحالتين، الحالات الاعتيادية لتفسير القولة على أساس دلالي، و الحالات الاستثنائية الحاصلة من حين لآخر))[١١]، فقد عمل الإمام (عليه السلام) على تحويل وصف الدنيا بمنظورها التنظيري المعرفي إلى سلوك تربوي عملي، فالخرق الواضح في مبدأ الملاءمة جعل من سياق الدلالة ينتقل إلى

الحكمة الأهم من الجواب عن السؤال و تجاوز ملاءمة السؤال الظاهرية إلى قضايا أهم و أعمق ينشد فيها الذهن إلى دلالات معنوية بحتة توجبها المقامات، والناظر للنص يجد أن الأفعال الكلامية لعبت دوراً مهماً في استقامة النص نسقياً و دلالياً (فَخُذُوا، تَهْتِكُوا، أَخْرِجُوا) حيث عملت على تأصيل التلويحات التي وردت في خبايا النص و رتبت المعلومات بشكل متسلسل إذ كان لها الدور الفاعل في بلورة الدلالة مع الاعتماد على السياقات اللغوية المصاحبة مع مبدأ الطرق الصوتي للفاصلة المنتهية لكل فعل مما يجعل من الصورة متكاملة بين الدال و المدلول إذ تعد من العناصر المهمة في بيان دلالة السياق اللغوي[١٢]، و مما تجدر الإشارة إليه تكون الصورة الكنائية و الفنية في تصور إخراج القلب من الدنيا و عدم التعلق بها و هذه اللوحات الفنية فيها إشارات وتلويحات رائعة إلى مقامات المتمسك بعالم التقوى و العمل الصالح فالمتكلم يطرق مسمع السائل بأسلوب الموعظة العامة باستعمال أساليب متنوعة لها المردود القوي في تغيير السلوك نحو الخير و الصلاح و بما يؤسس للثقافات التي يطرحها الدين الإسلامي على لسان دعاته و لا شك في أن المولى أمير المؤمنين(عليه السلام) يمثل خير داعية للدين الحنيف و يؤسس لترسيخ مفاهيمه بأساليب بلاغية و بيانية غاية في الجمال و الروعة و كلها تنسجم مع الطروحات الدراسية الحديثة ومنها محل البحث وهو خرق مبدأ الصلة و المناسبة و قد تبين كيف انتقل أسلوب المتكلم من الوصف إلى الوعظ في تحكم دلالي رائد ينم عن قدرة في رسم الألفاظ وسياقاتها المطلوبة و جعلها تحقق الغرض المطلوب في أصل تكوينها ((وقوله: فقدّموا بعضا. إلى آخره. أي فقدّموا بعضا من متاع الدنيا كالصدقات ونحوها يكن لكم ثوابها في الآخرة كقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: يا بن آدم ليس لك من دنياك إلَّا ثلاث: ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأبقيت، ولا تخلَّفوها بأسرها لغيركم فيكون عليكم وزرها، وقد علمت كيفيّة استلزام الصدقة والزكاة ونحوها للملكات الفاضلة والثواب الأخروي، واستلزام البخل وادخار المال للشقاوة

الأُخرويّة، وإنّما خصّص البعض بالتقديم لأنّ حرمان الورثة لا يجوز، ونهى عن تخليف الكلّ لأنّ ترك الزكاة والصدقة لا يجوز، وروى يكن لكم قرضا ويكن عليكم كلًّا وهو كقوله تعالى « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً » ولفظ القرض مستعار، ووجه الاستعارة أنّ القرض يستلزم في العادة الطلب من المقترض وشكره لمقرضه وأداءه إليه فأشبه ذلك تكرر أوامر الله الطالبة للزكاة والصدقة وشكر الله للمنفقين في سبيله وجزاؤه للمتصدّقين في الآخرة بأضعاف ما بذلوه وأنفس كميّة وكيفيّة من الكلّ الَّذي لا منفعة فيه مع وجود مضرّته))[١٣].

ومن كلام له (عليه السلام) يقول فيه: ((والله لَا يَزَالُونَ - حَتَّى لَا يَدَعُوا لله مُحَرَّماً إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ - ولَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ - وحَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ ولَا وَبَرٍ - إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ - ونَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ وحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ - بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ - وبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ - وحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ - كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ - إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ - وإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ - وحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِالله ظَنّاً - فَإِنْ أَتَاكُمُ الله بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا - وإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا - فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ))[١٤].

تندرج المفاهيم الأساسية لعملية قراءة النصوص ضمن أبواب متعددة تدخل في إطار العملية الاستقرائية لأي نص و من هذه الأبواب باب السياق الذي أكدهه العالم (غرايس) إذ عدّ السياق الذي يرافق النص من التجليات الأساسية و المفاتيح المهمة في سبيل الوصول إلى الفهم المراد للخطاب، و يعد المعنى العام للسياق من المفاهيم المهمة التي وقف عندها القرّاء و الباحثون إذ يؤكد الأستاذ محمد محمد يونس أهمية السياق إذ يقول: ((و لعله من المهم هنا أن نذكر أن فكرة السوق تحوي معنى التقيّد بالسياق و لكي يقف المخاطب على هذا المعنى في مقام خطابي معين عليه أن يأخذ في حسبانه السياق الكامل الذي قيل فيه الكلام))[١٥]، و هذا جل ما نلاحظه في نص المولى أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ إن الخطاب الموجه للمتلقي لا يمكن أن نصل إلى معناه و دلالته دون البحث في حيثيات سياقاته العامة و بالتالي فهم

الدلالة الخفية والتلويحات التي يريدها من المتلقي، فعندما ننظر إلى بداية النص نجد أن القسم و النفي قد تصدّر النص في تلويحات مهمة إلى مكانة المعلومات التي سوف يسردها النص و يجب على المتلقي أن يكدّ الذهن في سبيل الوصول إلى التلويحات المطلوبة و الغرض منها فكان القسم و النفي مقدمة لسوق المعلومات تباعاً حتى تكون متسلسلة تجعل من المتلقي في إطار فهم تدريجي للمعلومات، فالقسم يُستعمل في بعض الأحيان لإطالة الزمن في استقبال المعلومات و شدّ الشوق الحاصل من استعماله مع تنامي الرغبة في تحصيل النتائج الحاصلة من استعماله وعملية الربط الذي عملته أداة القسم بما يؤطر لمفاهيم تساق تباعاً في سياقات النص بما تشكل صورة للربط اللغوي المحكم[١٦]، ثم ينتقل الخطاب في أول خرق للملائمة فقد استعمل أسلوب الشرط في تأكيد المعلومات المستقبلية و كيفية إطار حدوثها و يمكن أن نلاحظ التلازم بين الأسلوبين في إطار نظري تحليلي يقوي الصورة التركيبية[١٧] و يعطيها أبعاداً دلالية و تلويحات إلى مفاهيم يطلبها النص فهذا الرسم البياني النسقي للألفاظ مقدمة للخرق الذي جاء بعد القسم المتمثل بالعبارة الأولى (لَا يَدَعُوا الله مُحَرَّماً إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ - ولَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ) و يمكن أن نلاحظ السؤال الافتراضي الذي يسوقه النص فكأن السائل يسأل عن حال الظالمين أو الأعداء و في هذه الحالة يمكن أن يكون الجواب في وصفهم و بيان حالهم و إذا بالجواب فيه تحول كبير و خرق لمفهوم الملاءمة الذي يطلبه السائل إلى مفاهيم عامة تندرج ضمن إطار المجتمع كله في تحول أسلوبي رائع ومحاكاة (لأسلوب الحكيم) و كسر لأفق التوقع الذي ينتظره السائل مما يجعل التحول الكلامي يندرج ضمن إطار التحول التلويحي و قواعده الذي يعبر عن المقصد الحقيقي الذي يريده المتكلم و صاغ النص لأجله و ربط القصد المتبادر إلى ذهن المتلقي بالسياقات الواردة بالنص[١٨]، فكان الخرق الأول في التحول من القيم السياسية و وصفها إلى قيم دينية أخلاقية تصف حالهم و عنصر وضعهم في إطارهم الاجتماعي و هذا التحول هو عنصر أساسي في التحولات

الأسلوبية و تغيير عنصرها الاستراتيجي السياقي في شدّ ذهن المتلقي لما هو أهم و أعظم من قيم السؤال المطروح و التعبير عن ما هو أهم من الفتنة السياسية ألا و هي المعايير و القيم الأخلاقية التي لها الأولوية في سير الفرد على الصراط المستقيم، و من استمرار القراءة لكل زوايا النص نجد تواتر الجمل المسبوقة ب حتى (حتى لا يدعوا، حتى لا يبقى، حتى يقوم الباكيان، حتى نصرة أحدكم، حتى يكون أعظمكم) و هذا التكرار في لفظة حتى يندرج تحت طياته سلمٌ انحداري في تنامٍ واضح نحو الهاوية و السقوط في مضامينه الاجتماعية و الأخلاقية و ربط هذا الانحدار على وفق إطار وجداني متسلسل مما يُحدث الأثر الدرامي البالغ في نفسية المتلقي في خرق واضح لأصول الترتيب الزمني في حدوث الصفات المتسلسلة المذكورة في النص و هذا الخرق المتعمد في كيفية الملاءمة يصنع دهشة فيها تأمّل واضح مما يجعل من السامع يسعى نحو تدارك واجب لفداحة المتدهورات الناتجة من البقاء في موجبات السخط و الهلاك. ومما يشير إليه (دي بو غراند) أن عمليات الربط لها القابلية على تكوين إشارات فيها المساحات الواسعة لإقامة العلاقات بين أغراض النص بعضها ببعض مما يجعل من العناصر و الصور المجتمعة لها قابلية التعلق مع بعضها ضمن حيثيات النص و فن صناعة الخطاب[١٩]، و مما يتمثل في قراءة النص نجد خرقاً آخر يتجلى في قلب مفهوم متعارف إلى عنصر مباغتة واضحة في تأجيج الفكر التلميحي للمتلقي (وحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ - كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ - إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ - وإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ) إذ إن المتعارف في اتباع النصرة والولاء في سياقها الديني المتعارف أثر في تقفية الشرف المتوارث و عمدة النصرة الحقيقية في استحصال الخير و توارثه؛ لكن نجد أن الإمام (عليه السلام) قد خرق مبدأ العادة في تحول صور النفاق بما يشبه التواتر و التوارث و هذه صورة رائعة يرسمها المتكلم و انتقال مفهوم العبودية من الحق إلى الباطل مما نسميه بالنفاق العبودي بحيث يكون تحول النصرة في حيثيات زمن الفتنة إلى قيم نفاقية و سلوك مختلف عن القيم الأصيلة النبيلة المتجذرة في

فطرة البشر إذ يمكن القول إن العلاقات في بيان عناصر اتساقها تتسم بمنطقية أصولها و تباعدها الزماني بين غرض و آخر مما يجعل من توافر الأغراض المبنية من أجلها النصوص تتعاقب فيها فكرة التغيير الدلالي من عنصر إلى آخر فالتماسك بين أحداث النصوص يعتمد على سردية أحداثها و تطور صورها بما يجعل المتلقي في جذب دائم و تحول في المفاهيم المتبعة و المعروفة[٢٠]، و التلويحات الضمنية للعبارات المذكورة أن المجتمع أصابه الخلل بحيث الفضيلة تصبح فارغة المحتوى و انقلاب الطاعة من طاعة للباري إلى ما هو دنيوي بحت و تفرع العلاقات إلى مظاهر نفعية يطغى على طابعها الرياء و النفاق. و بطبيعة الحال يمكن أن نصنّف هذا الخرق تحت بند ضرب العلاقات الاجتماعية المتمثلة بين الحاكمية و المحكومية و إبراز استعمال الألفاظ و تغير مضامينها من الحق إلى ستر أفول الباطل و انحرافاته الضالة.

توالت الصور الهندسية التي يرسمها المولى أمير المؤمنين (عليه السلام) فلا تكاد تخلو عبارة من عبارات النص إلا و فيها خرق لمبدأ الملائمة ففي العبارة الآتية ((وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بالله ظَنًّا)) التي يصف فيها المتكلم حال المتعب الذي يسلك طريق العناء ففي العادة أن الإنسان الذي يصيبه التعب و العناء هو الهالك و لا يقوم له حال و هذا بطبيعة الحال؛ لكن نجد أن المولى أمير المؤمنين (عليه السلام) قد قلب هذا المفهوم إلى مفهوم لا يتوقعه السائل الموجود أو الافتراضي و ذلك من انقلاب حال الهالك العامل لأعظم الناس، و الملاحظ أن المعرفة العلمية لمقام المتكلم صفة مهمة في تأطير الربط بين المتكلم و السياق؛ لأن الثقافة التي يتمتع بها المتكلم لها الأثر البالغ في سياقات الكلام وتدرجه، و حيثيات معرفة مقامية المتكلم تعد من الضروريات؛ لأن هذه المعرفة تجعل من المتلقي في معرفة تامة بعوامل السياقات التي ترافق الخطاب بحيث يصل المتلقي إلى السياقات المعرفية التي يريدها المتكلم و القصدية من تصنيع الخطاب و الأثر التداولي للأقوال و بالتالي الوصول للتلويحات والأغراض المرادة من تكوين النص[٢١]، ولو تفحصنا

في العبارة جيداً لرأينا أفعالاً غير مباشرة فيها الحث على العمل و الطاعة و الظن الحسن بالله تعالى و لا يكون ذلك إلا عن طريق التعب و العناء ففي إشارة العبارة تلويحات مهمة غير مباشرة تطلب من المتلقي الكد و التعب و تغير المفاهيم المطروقة عبر طرق مفهوم جديد لم يألفه المتلقي و ربط جميع المفاهيم من السياقات المطروحة و ربطها ببعضها و بيان الدلالات المطلوبة من سلوكها[٢٢]، و يمكن أن نلاحظ أن المسار التداولي للعبارة ينص على أن الابتلاء لا يدل على الغضب الإلهي بل على القرب من الباري تعالى شأنه و التلويح لهذا المفهوم جاء من خرق المفهوم المتعارف و تغيير المفاهيم المتعارفة بين أطراف الحوار، واستعمالاً للمفهوم المعروف (أسلوب الحكيم) الذي عدل من ظاهر المطلوب إلى ما هو أنفع و أفضل في حكمة استعمالية رائعة، و في نهاية النص يكون الختام في أبهى تصوير و أجمل تأصيل (فَإِنْ أَتَاكُمُ الله بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) ففي طيات الألفاظ تلويحات رائعة و تقليب للمبادئ المتعارفة فالخرق الذي خرق مسمع المتلقي في سياق سرد للصور بين متقابلات في الصور التي استعملها المتكلم في إحداث عنصر المفاجأة و السامع يتوقع الدعاء بعد سرد لغوي حافل بالصور غير المطمئنة فيكون الجواب على غير المتوقع بحيث يبعث الخطاب على روح الطمأنينة و التسليم و هذا عكس ما يُتعارف من بيان صور متعددة من الامتحانات و العقبات و هذا من عنصر التحول الرائع و تغيير أسلوب الخطاب من صور الخوف إلى لحظات السكينة و الهدوء، و الناظر المتفحص لحيثيات النص يرى تلويحات رائعة ناتجة عن حوار فيه القصدية الواضحة لإيصال المعنى المراد من المتكلم في كون عدم اليأس و القنوط في كل بلاء و امتحان و إنما دعوة للتضرع و الدعاء و بيان للصورة الإيمانية الحقيقية بحيث إن المولى أمير المؤمنين (عليه السلام) يرسل خارطة طريق للسمو الروحي و الخلاص من آفة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء عكس الخطابات التي تعكس ظاهر اليأس وتبعث القلق و الهم في نفسية المتلقي ((وحتّى يكون أعظمكم فيها

عناء أحسنكم بالله ظنّا، وإنّما كان كذلك لأنّ من حسن الظنّ بالله كان أشدّ الناس بعدا منهم وتوكّلا عليه فيكونون عليه أشد كلبا وله أقوى طلبا فكان منهم أكثر تعبا، ثمّ أردف ذلك بأمر من أتته العافية أن يقبلها، ويشكر الله عليها نعمة، وأراد العافية من الابتلاء بشرورهم لبعض الناس أو بقائم عدل مخلص من بلائهم، ويأمر من ابتلي بهم بالصبر على ما ابتلي به ووعده على ذلك بحسن العافية لازما للتقوى والصبر))[٢٣].

النص يمثل تحولاً جوهرياً في تأمل الوضع الوجودي للبشر و لا يقتصر التصور على الواقع الخارجي للأوصاف اللفظية بل انحراف عن جادة المتعارف إلى واحة الأمل و العمل ونبذ اليأس و الكسل.

و من كلام له (عليه السلام) يقول فيه: ((الْحَمْدُ لله الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ، ودَنَا بِطَوْلِهِ، مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وفَضْلٍ وكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وأَزْلٍ - أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وسَوَابِغِ نِعَمِهِ - وأُومِنُ بِهِ أَوَّلًا بَادِياً وأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً - وأَسْتَعِينُهُ قَاهِراً قَادِراً وأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً - وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً ص عَبْدُهُ ورَسُولُهُ - أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ وإِنْهَاءِ عُذْرِهِ وتَقْدِيمِ نُذُرِهِ أُوصِيكُمْ عِبَادَ الله بِتَقْوَى الله الَّذِي ضَرَبَ الأَمْثَالَ - ووَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ وأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ وأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ - وأَحَاطَ بِكُمُ الإِحْصَاءَ وأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ - وآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ والرِّفَدِ الرَّوَافِغِ - وأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً - ووَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ ودَارِ عِبْرَةٍ - أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا ومُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا))[٢٤]

تتأصّل الدوال الدلالية من الرسم الصحيح وهندسة الألفاظ بما تحقق الأغراض التي رسمها المتكلم و بالتالي لا يمكن الوصول إلى المعاني التي يريدها إلا من القراءة الصحيحة و فك الشفرات للنص و لا يمكن القراءة الصحيحة لحيثيات النص دون معرفة السياقات الداخلية و الخارجية للنصّ و ذلك لأن السياقات لها الخاصية الفاعلة لتواطن البيئة اللغوية المصاحبة للنص و كذلك المقام و ما ينتج عنه و غير ذلك من الأمور التي تدخل في برمجيات القراءة الصحيحة للنص[٢٥]، ففي بداية

النص العلوي نرى أن الخطاب يفتتح بالحمد و لكن لم يطلب الحمد بمعناه الحقيقي بل انتقاله إلى تأسيس خطاب يقوم على أساس رؤية ذات أبعاد كونية و أخلاقية فالظاهر أن الخطاب موجه إلى مساحات المؤمن العارف بوجود الله تعالى ووحدانيته و في دائرة العيش المصاحب للاختبار و النسق البلائي، ثم ينتقل الخطاب في أول انحراف عن جادة الملاءمة و الصلة (الْحَمْدُ لله الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ، ودَنَا بِطَوْلِهِ) فالناظر لأول وهلة يرى الخطاب من بعد مادي أي القياس على أساس أبعاد مادية و الحال ليس كذلك فالقدرة الإلهية لا تخضع لمقاسات المادة من العلو و الدنو؛ إنما الخطاب يكسر أفق التوقع في وصف العلو و الدنو على مقاس واحد في تأسيس لمعرفة وجودية لا تحمل في طياتها التقابل أو التناقض، فهذه الألفاظ الواردة تؤسس لبلاغيات الصور التي تحمل معنى معرفيًا ووجوديًا فالتلويحات الناتجة من استعمال الدنو و العلو أن الباري تعالى شأنه ليس من باب الانقطاع و الارتفاع أو الانخفاض المادي المحسوس فالإمام (عليه السلام) يؤسس لتقويض التصورات البشرية لمبدأي الارتفاع و الانخفاض و بذلك يكون الانتقال من المحسوسات المادية إلى غير المحسوسات بما لا يتصوره العقل البشري فالناظر يرى الانتقال في ماهية الخطاب و عدوله من الوحدة المكانية إلى التجليات الروحية و الدلالات التي تلامس الروح البشرية فهذا يمثل انتقاله من المعنى الظاهر المعروف إلى المعنى الباطن العميق و يمكن أن نطلق عليه أسلوب الحكيم الذي هو جوهر خرق قاعدة الملاءمة أو الصلة فلو لاحظنا بشكل جيد نرى السياقات التي رافقت العبارة تتناسب مع الفرضيات التي يطلبها المعنى العميق وهو المطلوب من سوق العبارات وتحميلها على معناها الباطن[٢٦] و مما يمكن استنتاجه أن التأثيرات السياقية لها علاقة قوية بماهيات الصلة أو المناسبة و يتبرهن ذلك من الربط بين الدلالات الخفية و آليات قراءة النص فالواضح أن العلاقة متأتّية بين الصلة و السياق فكلما ازداد حجم تأثيرات السياق تأثرت مبادئ الصلة أو المناسبة بكل زيادة للسياقات[٢٧]، و من النظر إلى العبارات

التالية نجد أن النص يستمر في خرق مبدأ الصلة بشكل واضح و جلي عبر عرض المعلومات الظاهرة المتبادرة في معنى للظاهر في أول وهلة إلى معنى آخر في قراءة متأنّية ضمن الأدوات المتاحة (مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وفَضْلٍ وكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وأَزْلٍ) فالقارئ لأول وهلة يرى أن العبارات تحمل الصفات التناقضية أو التقابلية في فن بلاغي لا يتعدى غيره؛ لكن عند القراءة الفاحصة بكل الأبعاد يرى أن الخطاب أخذ أبعاداً تداولية فلا يمكن جمع الصفات المتناقضة في عبارة واحدة و هذا للظاهر في حين إن الإبداع يكمن في استعمال التقابل في عبارة واحدة و عدم الاستغراب أن الباري تعالى هو مصدر لكل التجليات الموصوفة و أن الله تعالى هو مصدر العطاءات في غنيمة الخير إن كان على مستوى الجزاء أو البلاء فكلاهما يدخل في باب الخير للإنسان على المعنى البعيد لا على قصر النظر للبشر فالتلويحات التي اعتمدتها العبارة أن الله تبارك وتعالى هو المصدر في العطاءات و الامتحانات و لا يمكن أن يُقاس الخير بالعطاء و الشر بالبلاء فكلاهما خير و رحمة و غاية الفيض منه تجلى و علا و حقيقة الانتقال من المعنى الظاهري المباشر إلى دلالة أخرى خفية تتلاءم مع الفيض الوجودي للحكمة الربانية في خرق ملائم ورائع لتجليات الرحمة في معناها العبودي الحقيقي، و بطبيعة الحال يبقى النص العلوي يؤسس لبراغماتية أصولها اللغة العربية و سمتها حسن التماثل بين الدال و المدلول باستمرار خرق مبدأ الصلة أو المناسبة في انتقالةٍ نوعية على طريقة الخطاب (أُوصِيكُمْ عِبَادَ الله بِتَقْوَى الله) فالمتابع لسلسلة الخطاب من بدايته يرى التسلسل في طرح الخطاب من تمجيد الباري تعالى شأنه و من المتوقع أن يستمر خطاب المدح و استقراره لدى المتلقي بحيث يجعله في نسق لفظي و دلالي واحد ثم يتفاجأ المتلقي بتغيير نمط الخطاب و الانتقال إلى مرحلة الوصية و هذا الخرق في تتابع الخطاب أحدث خرقاً واضحاً في أذن السامع مما جعله في مفاجأة و تغيير للمسار الذي كان يطرحه الخط المستقيم للألفاظ إذ الملاحظ انتقال الخطاب من المغيبات إلى واحة المخاطبات من دون تمهيدات فيه

وتغيير لوجهة النص على أساس الصورة الكلية للنص و مع ذلك نرى أن العنصر التحولي لم يأتِ اعتباطاً بل من تماسك بين أطراف العبارات و بيان عنصر التضامن في تغيرات مواقعها[٢٨] فكلما اقتربت في الصورة و الدلالة ازدادت اتساقاً و جمالاً و شدّت الذهن إلى دلالات عميقة وتلويحات مرادة و واجب على المتلقي أن يستكشفها وهي التي تعبر عن القيمة المعرفية للباري تعالى شأنه و التي يجب أن تترجم إلى سلوك و تطبيق عملي، و التلويحات المستخلصة أيضا من العبارة في توجيه الخطاب و تحويله من وصفيات الذات الإلهية إلى توليد آثار لها القوة في التأثير النفسي فالتناسق بين ألفاظ العبارة أعطى رونقاً رائعاً و فسحة واسعة للمتلقي في عملية البحث و الإبحار في كينونات النص و أردفت نسقاً نصياً عالياً و أخرجت لنا نصاً متماسكاً بين اللفظ و المعنى[٢٩] وقد أطّرت لتحويل الخطاب من أسلوب معرفي توحيدي إلى تكليفات عملية و هذا لب أسلوب الحكيم في تحويل ما هو متوقع (مدحاً) إلى ما هو أفيد و أفضل (وصيةً).

و من الضروري عدم الغفلة في تأطير سياقات النص بالدلالة المطلوبة والواجب توفرها من ألفاظه و ترتيباته فعندما ننظر إلى حيثيات العبارة الواردة لاحقاً نجد أسلوباً حكيماً رائعاً لعملية غاية في الجمال و الانتقال (الَّذِي ضَرَبَ الأَمْثَالَ - ووَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ وأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ وأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ) فالمتبادر للذهن و المعروف منطقاً و عقلاً أن تأتي الآجال بعد ما يتمتع الإنسان بالنعم و العيش و يرى كل مسببات الحياة؛ لكن نرى الخطاب العلوي قد خرق هذا التسلسل الطبيعي في إشارة رائعة لتقديم الآجال على مسيرة الحياة في سبيل إحداث وعي حقيقة لأصول الموت و حقيقته و إحداث هزّة في نفس المتلقي إلى المنتهى و لو تنعم بكل أنواع الحياة الجميلة، فالملاحظ من توظيف الألفاظ التوصل إلى مدى معرفة النسق الحاصل بين المرسل و المرسل إليه وعملية الرسم البياني لاستعمال الألفاظ و الوصول إلى المعاني المرادة ضمن إطار السياق والثقافات المشتركة و كيف يمكن للمتلقي أن يستوعب الدلالات و

التلويحات الحاصلة من خرق الأصل[٣٠] إذ يمكن أن نرسم صورة للمعنى الملوح أن المعنى الرائع و الجميل في معرفة حقيقة السعادة في الدنيا مرهونة بمعرفة حقيقة الفناء و لا يمكن أن ندرك العيش السليم دون معرفة الحقيقة الأبدية للموت و هذا النمط في التحول الفجائي من حيثيات النعمة إلى واحة الفنائيات يُعدّ من بلاغيات الصور التي أرادها (غرايس) لتطبيق مبدأ الخرق و التكيف الزمني بين أغراض العبارة يجعل المتلقي في إعادة بناء حيثيات النص بأسلوب الكد الذهني لتناسق العبارات و استخراج التلويحات المطلوبة بشكل متقن، و من الضروري تتبع التواتر في أصول الصور عن طريق انبثاقها في أساس الألفاظ وتكوينها للعبارات إذ الملاحظ في نسق النص استمرار عملية خرق النمط في العلاقة و الصلة أو المناسبة إذ يطلب المقام استمرار الخرق لعدة عوامل انتقالية لحيثيات المعنى الأصلي و المراد من تكوينات النص (وآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ والرِّفَدِ الرَّوَافِغِ - وأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً - ووَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ ودَارِ عِبْرَةٍ) فعمد المولى أمير المؤمنين (ع) إلى استعمال التكرار في أحرف مختارة و تراكيب متشابهة لإحداث نوع من التلاءم اللفظي في قصدية واضحة و تامة و تأسيس لمبدأ تكراري جمالي فيه الأثر البالغ في فكر وشعوره المتلقي فالمتكلم يعمد إلى تكرار الجمل التي فيها تقريرات و تفسير و تحتوي على إيقاعات في وحدات تركيبية رائعة تخلق توازناً بلاغياً يشار إليه بين إحصاءٍ ومحاسبةٍ من جهة وأقدار و اختبار من جهة أخرى بحيث يمكن القول إن الخطاب له أبعاده القوية السلطوية على المخاطَب و يملك القدرة على إحداث تغيرات وتحولات على جميع أنشطة فكر المتلقي بما ينسجم و الفكرة المطروحة لحيثيات الكلام[٣١] وإن هذه المفاهيم التي طرحها المتكلم جاءت لتأدية واجب الخرق و التحول و التمحور من المعنى الظاهري إلى آخر فرعي ((جاء ليؤدي وظيفة تداولية تتمثل في إقناع المتلقي من خلال خروجه إلى الأغراض المذكورة، كما أنه من جهة أخرى و باعتباره فعلاً كلامياً مكرراً في ذاته يؤدي هذه الوظيفة الإقناعية))[٣٢] إذ

جاءت الألفاظ على شكل تكرار يؤصّر الوظائف المنعقدة من استعمال الألفاظ في غير معانيها المطروحة و تأسيس لفكرة مركزية أن الباري تعالى شأنه لا يمكن أن يغفل عن أي شيء و التلويحات التي أرادتها العبارة أنها تؤكد ضمنية إحاطة الباري بجميع أصناف خلقه و عباده.

تتواشج التلويحات في النص العلوي وتؤسس لمفاهيم ناتجة عن خروقات واضحة لمبدأ الصلة بما ينسجم مع طرح أسلوب الحكيم الذي يتمثل في العبارة الخاتمة للنص (أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا ومُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا) فالبناء اللفظي الذي تقدّم العبارة كان قد أسس لمفاهيم كونية واسعة عن قدرة الباري تعالى و مخلوقاته و ما يدر عليها من النعم جاء الخطاب ليختم هذه الخروقات في تحول رائع و مفاجئ من السقف الإلهي إلى المستوى الإنساني الذي يخاطب المستويات المقامية للمتلقي في نهاية للخطاب و الوصف عن القدرات الإلهية و يجعل تمركزها و استقرار مفاهيمها على المستوى الأرضي و يطرح مفهوم التلويحات أن المعارف الإلهية لا نطلبها للتجرد و الوصف فقط؛ بل لتنغمس في أصول تربيتنا و حياتنا اليومية و العملية و أن كل التلويحات التي تراءت في النص تؤسس إلى محاسبة النفس البشرية و تقديم أسس الحساب و توافقها بما تتجلى الرؤية الكونية للخلق و أن النص العلوي يعد من أفضل النصوص المعرفية التي لها القدرة في توظيف الخروقات الملائمة لتوريدات المعارف الروحية و انغماس الإنسان بمعالم العطاء الإلهي عبر الانتقال من التنظير إلى العمل و بناء الصياغة المثلى بين الله تعالى و البشر بما يؤطر لإنسان أمثل أكمل على المستويات العقدية ضمن زمن و منطق و سياق و كل الخروقات اللفظية كانت جسراً إلى معانٍ عميقة تجسد أسلوب الحكيم بعينه و تلائم مبدأ الصلة بحذافيره و مقاديره ثم الوصول إلى التلويحات و الدلالات المطلوبة و الأغراض المرادة من صناعة النص و حنكة تكوينه و براعة صياغته و تأسيسه ((والإشارة بهذا المثل إلى من كان قد طلب إظهار المعجزات من الرسول صلى الله عليه وآله وسلَّم فلمّا ظهرت لهم لم يقبلوها ورجعوا إلى ظلمة جهلهم فهم صمّ عن سماع دواعي الله بآذان

قلوبهم، بكم عن مناجاة الله بأسرارهم، عميٌ عن مشاهدة أنوار الله بإبصار بصائرهم فهم لا يرجعون عن تماديهم في غيّهم وكفرهم... وإنّما كرّر وصف الإحصاء والعدّ وهذين الوصفين أيضا لأنّ الوهم كثيرا ما ينكر إحاطته تعالى بالجزئيّات مع عدم تناهيها فيكون ذلك مشبّها على النفس توقيت الآجال لكلّ شخص ويقدح في أمر المعاد العقوبات اللازمة لكلّ آحاد الخلق بحسب كلّ ذرّة من الأعمال الطالحة فكرّرهما طردا للوهم وكسرا لحكمه، ولأنّ ذكر توقيت الآجال من أشدّ الجواذب عن الدنيا إلى الله. وقوله: في قرار خبرة ودار عبرة: أي محلّ اختبار الله خلقه ومحلّ عبرتهم: أي انتقال أذهانهم فيما تجري فيها من آيات العبرة وآثار القدرة. والاستدلال بها على وحدانيّة مبدعها كما سبقت الإشارة إلى معنى الاختبار والاعتبار))[٣٣].

نتائج البحث:

* إن النظريات الغربية لها أساسيات في التراث اللغوي العربي القديم بل تنبع من أصولها و لذلك نجد ملاءمة النصوص العربية مع النظريات الغربية المطروحة.

* إن النظرية الغرايسية واحدة من النظريات البراغماتية التي لها الصدى الواسع في البحث اللغوي و الاستدلال اللغوي و الوصول إلى المعنى البعيد لاستعمال اللغة.

* يعدّ (بول غرايس) من مؤسسي التداولية الفلسفية و كان جل همّه أن يسن نظرية تبحث في كيفية أن يعني المتكلم أكثر مما يقول.

* أخذت النظرية الغرايسية منحى واسعًا في إطار البحث و الترجمة في الوطن العربي و تُرجمت إلى ترجمات كثيرة ونحن نتبنى ترجمة العالم اللغوي العراقي الدكتور هشام الخليفة الذي أطلق على ترجمة النظرية (التلويح الحواري).

* إن نظرية (التلويح الحواري) تتلاءم مع ما طرحه العرب القدامى في المعنى الخفي للكلام و كيفية استعمال اللغة في توليد معانٍ خفية مع السياق و الظروف.

* إن لفظة التلويح التي ترجمها الدكتور (هشام الخليفة) تحمل كل مقتضيات المعنى الخفي في الاستعمال اللغوي البلاغي وهي تقابل الاستعمال الصريح في اللغة العربية كما يشير كتاب (معجم

أوكسفورد للتداولية).

* توصّلنا إلى أن النص العربي المتمثل بالخطاب العلوي تنطبق عليه نظرية التلويح الحواري عبر استعمال الألفاظ و الإشارة إلى معانٍ خفية.

* يعدّ (أسلوب الحكيم) واحداً من آليات الخطاب التي تستعمل إلى الإشارة البعيدة للمعاني الخفية وراء استعمال الألفاظ و لذلك يتلاءم مع نظرية التلويح الحواري.

* استعمل المولى أمير المؤمنين (عليه السلام) الخطابات التلويحية للإشارة إلى معانٍ و دلالات تستوجب الإشارة إليها عن طريق (أسلوب الحكيم) و هذا الأسلوب من الطرق المهمة التي يلجأ إليها المتكلم دون التصريح في كيفية إيصال المراد.

* جمالية التصوير في استعمال الفن البلاغي تُخرج لنا صوراً مختلفة تدلل على إمكانية المنشئ و براعة استعماله اللغوي بما ينتج صوراً فلسفية عميقة.

* التبادل العميق بين الدال و المدلول يرسم لنا لوحات فنّية رائعة يتبناها الخطاب العلوي و بالتالي ينتهج هذا الأسلوب لدلالات في نفسية المتكلم دون التصريح بها.

* لا بدّ من القول إن الخطاب العلوي يعدّ من أرفع الخطابات لما يحمله من طُرق تكوين النصوص وفيه أعلى معايير النصّية في توصيل المعنى.

الهوامش:

١- جواهر البلاغة، ص٣٢١-٣٢٢.

٢- مفتاح العلوم، ص٣٢٤.

٣- النازعات،٤٢-٤٤.

٤- الكشاف للزمخشري: ج٤، ص٧٣٤.

٥- ينظر: الاستلزام الحواري في رسائل نهج البلاغة (الرسالة الخامسة و الخمسون إلى معاوية أنموذجاً)، مريم هاشميان، بحث – مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد ٧٤- الجزء الثاني، تشرين الأول -٢٠٢٣، ص١١٣.

٦- شرح نهج البلاغة، ج ٤، ابن ميثم البحراني، ص ٥.

٧- ينظر: التداوليات علم استعمال اللغة، حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع، ط٢-٢٠١٤، الأردن ص٤٥٧.

٨- ينظر: الأبعاد التداولية عند الأصوليين مدرسة النجف الحديثة أنموذجاً، فضاء ذياب الحسناوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت- لبنان، ط١-٢٠١٦، ص٧٦.

٩- ينظر: النحو و الدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة- مصر- ٢٠٠٦، ص١٤٤.

١٠- ينظر: في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان،ط١- ٢٠٠٦، ص١٠٣.

١١- نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل و الإدراك، دان سبيربر – ديري ولسون، ت هشام الخليفة، مراجعة فراس معروف، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط١- ٢٠١٦، ص٣٠٥.

١٢- ينظر: أصول النظرية السياقية عند علماء العربية و دور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى، مالك نظير يحيا، مقال صادر في مجلة جامعة تشرين للبحوث و الدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مجلد٣٠- عدد٢- ٢٠٠٨ص٣٦.

١٣- شرح نهج البلاغة، ج ٤، ابن ميثم البحراني، ص٦- ٧.

١٤- شرح نهج البلاغة، ج ٢، ابن ميثم البحراني، ص٤٠٩.

١٥- علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علم الأصول في فهم النص، د. محمد محمد يونس ، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط١- ٢٠٠٦، ص٢٠٨.

١٦- ينظر: علم لغة النص النظرية و التطبيق، د. عزة شبل محمد، تقديم د. سليمان العطار، مكتبة الآداب- القاهرة،ط١- ٢٠٠٧،

ص١٦٦.

١٧- ينظر: نظام الارتباط و الربط في تركيب الجملة العربية، د. مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة- مصر، ط١- ١٩٩٧، ص٢٠٢.

١٨- ينظر: النص و الخطاب و الاتصال، د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة- مصر، ط١- ٢٠٠٥. ص٢٩٠.

١٩- ينظر: النص و الخطاب و الإجراء، روبرت دي بو غراند، تمام حسان، عالم الكتب- القاهرة- مصر، ط١- ١٩٩٨، ص٣٤٦.

٢٠- ينظر: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج، تقديم د. سليمان العطّار، و د. محمود فهمي حجازي، مكتبة الآداب- القاهرة، ط١- ٢٠٠٧، ص١١٣.

٢١- ينظر: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ج٢، ص١٠٢.

٢٢- ينظر: تحليل الخطاب في ضوء نظرية إحداث اللغة دراسة تطبيقية لأساليب التأثير و الإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم، د. محمود عكاشة ، دار النشر للجامعات، القاهرة- مصر، ط١- ٢٠١٣ ، ص١٢٨.

٢٣- شرح نهج البلاغة، ج ٢، ابن ميثم البحراني، ص ٤١٠.

٢٤- شرح نهج البلاغة، ج٢،ص٢٣٠-٢٣٣.

٢٥- ينظر: علم الدلالة العربي النظرية و التطبيق، د. فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ط١- ١٩٨٥، ص٥٧.

٢٦- ينظر: إطلالات على النظريات اللسانية و الدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين «مختارات معربة»، ت- مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف- عز الدين مجذوب، المجمع التونسي للعلوم والآداب «بيت الحكمة»، ط١- ٢٠١٢، ج٢- ص٥٨٧.

٢٧- ينظر: نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل و الإدراك، ص٢١٢.

٢٨- ينظر: البديع بين البلاغة العربية و اللسانيات النصية ، د. جميل عبد المجيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ٢٠٠٦، ص١٠٨.

٢٩- ينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، محمد الشاوش، كلية الآداب منوبة، تونس بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتوزيع، ط١- ٢٠٠١ ، ج١-ص١٤٣.

٣٠- ينظر: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج،

تقديم- د. سليمان العطّار، و د. محمود فهمي حجازي، مكتبة الآداب- القاهرة، ط١- ٢٠٠٧ص١١٦.

٣١- ينظر: حوار حول الحجاج، أبو بكر العزاوي، الدار البيضاء- الأحمدية ، ط١- ٢٠١٠، ص٣٦.

٣٢- الإقناع الأمثل للتواصل و الحوار، نماذج من القرآن و الحديث، آمنة بلعلي، مجلة التراث العربي، دمشق، عدد ٨٩، مارس-٢٠٠٣، ص٣٦١.

٣٣- شرح نهج البلاغة، ج ٢، ابن ميثم البحراني، ص٢٣٣- ٢٣٥.

المصادر و المراجع:

١- الأبعاد التداولية عند الأصوليين مدرسة النجف الحديثة أنموذجاً، فضاء ذياب الحسناوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت- لبنان، ط١-٢٠١٦.

٢- أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، محمد الشاوش، كلية الآداب منوبة، تونس بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتوزيع، ط١- ٢٠٠١.

٣- إطلالات على النظريات اللسانية و الدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين «مختارات معربة»، ت- مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف- عز الدين مجذوب، المجمع التونسي للعلوم والآداب «بيت الحكمة»، ط١- ٢٠١٢، ج٢.

٤- البديع بين البلاغة العربية و اللسانيات النصية ، د. جميل عبد المجيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ٢٠٠٦.

٥- تحليل الخطاب في ضوء نظرية إحداث اللغة دراسة تطبيقية لأساليب التأثير و الإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم، د. محمود عكاشة ، دار النشر للجامعات، القاهرة- مصر، ط١- ٢٠١٣.

٦- التداوليات علم استعمال اللغة، حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع،ط٢-٢٠١٤، الأردن.

٧- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

٨- حوار حول الحجاج، أبو بكر العزاوي، الدار البيضاء- الأحمدية ، ط١- ٢٠١٠.

٩- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني ت ٦٧٩، ط١، مكتب الاعلام الإسلامي، قم- إيران.

١٠- علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علم الأصول في فهم النص، د. محمد محمد يونس ، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط١- ٢٠٠٦.

١١- علم الدلالة العربي النظرية و التطبيق، د. فايز الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ط١- ١٩٨٥.

١٢- علم لغة النص النظرية و التطبيق، د. عزة شبل محمد، تقديم د. سليمان العطار، مكتبة الآداب- القاهرة،ط١- ٢٠٠٧.

١٣- في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان،ط١- ٢٠٠٦.

١٤- النحو و الدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة- مصر- ٢٠٠٦.

١٥- النص و الخطاب و الاتصال، د. محمد

العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة- مصر، ط١- ٢٠٠٥.

١٦- النص و الخطاب و الإجراء، روبرت دي بو غراند، ت نهام حسان، عالم الكتب- القاهرة- مصر، ط١- ١٩٩٨.

١٧- نظام الارتباط و الربط في تركيب الجملة العربية، د. مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة- مصر، ط١- ١٩٩٧.

١٨- نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل و الإدراك، دان سبيربر - ديري ولسون، ت هشام الخليفة، مراجعة فراس معروف، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط١- ٢٠١٦.

١٩- نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج، تقديم د. سليمان العطّار، و د. محمود فهمي حجازي، مكتبة الآداب- القاهرة، ط١- ٢٠٠٧.

اليحوث:

١- الاستلزام الحواري في رسائل نهج البلاغة(الرسالة الخامسة و الخمسون إلى معاوية أنموذجاً)، مريم هاشميان، بحث - مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد ٧٤- الجزء الثاني، تشرين الأول -٢٠٢٣.

٢- أصول النظرية السياقية عند علماء العربية و دور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى، مالك نظير يحيا، مقال صادر في مجلة جامعة تشرين للبحوث و الدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مجلد٣٠- عدد٢- ٢٠٠٨.

٣- الإقناع الأمثل للتواصل و الحوار، نماذج من القرآن و الحديث، آمنة بلعلي، مجلة التراث العربي، دمشق، عدد ٨٩، مارس- ٢٠٠٣.